الفصل الثالث
مفاهيم فكرية متعالقة

الفصل الثالث
مفاهيم فكرية متعالقة

أولا: الثقافة والحضارة واللغة/ تداخل مفهومي المصطلح والسرد

التداخل الثقافي والحضاري

يعرف ادوارد هيريو الثقافة هي ما يبقى عندما يتم نسيان كل شيء، اما الدكتور عبد النبي اسطيف فيعرف الثقافة تمييزا لها عن الحضارة انها مجموع الانتاج العلمي والتقني والمعرفي والفكري والفني والادبي، المادي وغير المادي على حد سواء لأمة من الامم او لشعب من الشعوب في فترة زمنية محددة، وفي رقعة محدودة من هذا العالم. اما الحضارة برأيه فهو يشترك مع الباحث الكاتب معن زيادة في اعتبارهما الحضارات القديمة الانسانية رغم تعددها فهي كانت حضارة انسانية واحدة لجميع شعوب الارض، وان مستقبل الحضارات في ان تتكامل مع بعضها البعض لتكون حضارة انسانية واحدة مشتركة من اسهام الجميع وملك الجميع، ولعل من المفيد هنا تكرار مقولة توماس فريدمان بان عصر العولمة فتح الباب مشرعا امام جميع شعوب وامم العالم في الاسهام الحضاري بدون تمييز ولا تفريق ويبقى الجاد هو الذي سيثبته التاريخ بضوء هذا الفهم العولمي و لا يبقى معنى من التخوف ان العولمة تلغي الهويات الذاتية وخصوصيات الشعوب والامم. فهذه تبريرات وهمية يتعكز عليها العاجزون الفاشلون.

على نفس المنوال يذهب د.عبدالنبي اسطيف ان الحضارة الانسانية واحدة وليس ثمة من هوية لها غير الهوية الانسانية الجامعة ولذا فانها ملك الانسانية كلها، لان كلا من شعوب وامم الارض ساهم في رقعة على الارض في عصر ما من تاريخ البشرية، ومن ثم بحسب رأيه فأن هذه الحضارة هي نتاج جمعي مشترك للانسانية ولا يحق لاية امة او دولة او شعب ان تحتكرها لنفسها او تنسبها الى عبقريتها.اذن الحضارة العالمية رغم تنوعها فهي سائرة نحو التكامل والتكافل.

اما الكاتب والباحث محمد علي الكبسي فيذهب ان الانسان باعتباره الحيوان الوحيد الذي لا يجتمع من اجل التجمع، بل يجتمع من اجل الانتاج، تمكن بذلك من انتاج نمط عيش يعبر عنه من خلال مجموعة من الرموز بوصفها شكلا اساسيا يجسد وحدته مع بني جنسه ويجسد ما اطلق عليه اسم الثقافة.هنا نجد الكبسي يميز الثقافة عن الحضارة على ان الثقافة ذات وهوية لشعب او امة تاخذ صفة الاستقلالية التامة الخاصة بينما تكون الحضارة جزء من حضارة انسانية اشمل.اذ ان التمايز الهوياتي للثقافة تكون فيه ملامح المحلية هي الطاغية السائدة.

وعند التناول السوسيولوجي لحقل الثقافة يؤكد تفاعل عناصر ثلاثة حسب الكبسي داخل الاطار الذي تصدر عنه هذه المواد، ثم الحاملون لهذه المواد باعتبارهم صاهرين ومحولين لها في اشكال متجاذبة او متنافرة حسب علاقاتهم بالبناء الاجتماعي فنتوصل الى تمييز انواع عدة من هذه الاشكال كاشكال مجردة او مثبتة، بل كاشكال لها علاقة بالتربة التي افرزتها.

ويقول الباحث عزيز العرباوي في الثقافة: ان الثقافة التي تنتمي الى شعب ما. هي مجموعة مكتسبة من الخصائص والصفات ترسم للانسان خصائص معينة للسلوك تقوم على مجموعة من المثل والقيم والمفاهيم الموروثة. يتمسك بها ويحرص في الحفاظ عليها. هذه الخصائص والصفات تتوافر لديه انطلاقا من العصور والاجيال السابقة. وذلك نتيجة للتطور العقلي والوجداني والاجتماعي والثقافي الذي عرفته مراحل حياته. فهي التي ترسم معالم الحياة الانسانية. وتصنع تاريخ البشرية. وتحدد الواقع المعيشي وترسم المستقبل الواعد الذي يتصور الانسان خصائصه واساليبه. وبالتالي تحافظ على الارتباط به وعدم الانفصال عنه[1].

وبعد ان اعطى العرباوي الثقافة الخاصة لشعب معين بعدها الانساني وافقها الحضاري العالمي يعود الى تاكيد اهمية تجذير الثقافة بكل تجلياتها . وبالتالي فالشعب سجين تراثه ويصعب عليه فك الارتباط به.. وما عليه الا التوفيق بين ثقافته التي تستمد جذورها من التراث والماضي الذي يتسم بالعديد من الخصائص المرتبطة بالمقدس والاعتقاد والايمان. وبين ثقافة عصرية جديدة ترتبط بالتقنية والابداع والابتكار والعلم. هذا التوفيق لا محالة سيساعد الاجيال الحالية والقادمة على اتصالها بماضيها وتراثها مع تطويره والباسه لبوسا عصريا سواء من حيث اللغة او من حيث تقنيات الابداع والتجديد[2].

اما تعريف تايلور (1830-1917) المتداخل بين الثقافة والحضارة فهو يعتبرهما كليهما بالمعنى الانتوغرافي الواسع تمثلان المجموعة المعقدة التي تشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والاخلاق والتقاليد وكل القابليات والتطبيقات التي يكتسبها الانسان كعضو في مجتمع ما.يؤكد يوهان هيردر1744-1803 فيلسوف وناقد ادبي ولغوي الماني ومؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ ضرورة الاهتمام باللغة كونها اساس كل تطور وتأتي اللغة حسب مفهومه في المقدمة ثم تتبعها الحكمة والمعرفة.كما ان فعل التفلسف عند اراكون يقوم على ثلاثة عناصر اللغة-الفكر-التاريخ.-

اما كلود ليفي شتراوس فيذهب الى تحقيق القطيعة الثقافية بمعنى التمايز والاختلاف والتنوع الثقافي مع الآخر، فانه برأيه يستوجب استحداث الفرق التمايزي الذي يمكننا من تجاوز الطبيعة وبناء الثقافة لانه يمكننا من الانفتاح على الآخر، فاللغة وكذلك المحرم الجنسي هما اللذان ساعدا الانسان على ان يتحول الى كائن ثقافي، ومكناه من تجاوز دائرة الطبيعة والانفتاح على غيره من المجتمعات من خلال التبادل سواءُ كان تبادلاً للرموز او للبضائع او الفن او النساء.

(1)عزيز العرباوي – عالم الفكر – ع 2 – مج 42 – 2015 – الثقافة الشعبية وادابها ص 120 -.
(2) المصدر السابق نفسه والصفحة

- **الثقافة العربية والانفتاح التجديدي**

يدين المفكر العربي محمد عابد الجابري ثقافتنا العربية ويصفها انها كانت وما زالت حركة اعتماد لا حركة نقلة او طفرات نوعية، وبالتالي فزمنها مدة يعدها السكون لا الحركة، وهذا على الرغم من جميع التحركات والاهتزازات والهزات التي عرفتها.

كما ان النظام المعرفي بحسب الجابري، هو جملة من المفاهيم والمبادئ والاجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية او اختزالها النظام المعرفي في ثقافة ما هو بنيتها اللاشعورية.

توضيحا سريعا لعبارات المفكر الجابري ان الثقافة العربية كانت وما تزال حركة ذاتية منغلقة حول محورها في تراكم كمي اجتراري، بؤرته المركزية المقدس والمحرم فقط، ولم تكن حركة الثقافة العربية حركة ديناميكية عوامل تحريكها تنبثق من داخلها، وانما هي ثقافة تابعة ومحكومة باستيرادها حداثة عوامل التحريك الخارجية المؤثرة في مسارها عن الغرب واوربا وامريكا تحديدا، أي ان الثقافة العربية لا جدلية ولا مادية ايضا، بمعنى لا يحكمها ديالكتيك الحركة والتضاد والتطور النوعي والصيرورة وتعبير المفكر الجابري حول النظام المعرفي لشعب او امة لأي ثقافة هو بنيتها "اللاشعورية"، ومن المرجح ان البنية اللاشعورية التي يقصدها الجابري هي الحفاظ على الذات المتفردة، والهوية المميزة، فكلاهما لا يفصح عن نفسه شعوريا الا بمحصلة ما ينتجه من انماط ثقافية ومعرفية وسلوكية، وهذا ما يؤكد قول الجابري يجب ان نعترف اننا العرب المسلمون ألفنا هذا التاريخ الممزق واذا نحن نظرنا الى المسألة من خلال ما نعبر عنه هنا بالزمن الثقافي واللاشعور المعرفي- يقصد الذات والهوية – ادركنا خطورة هذا التاريخ الممزق على صعيد الوعي التاريخي عند العرب.

وحين يسم المفكر الجابري ثقافتنا المحكومة بالزمن الساكن – من خلال المقدس والمحرم- فانه يصف السمة الثقافية العربية المعاصرة اليوم، بانه زمن ثقافي عربي واحد،واحد برأيه لعدم وجود اختلافات ثقافية جوهرية بين معظم اقطار الوطن العربي لثقافة عربية حضور القديم فيها وهيمنته القاسية لا في جوف الجديد يغنيه ويوصله، بل حضور القديم الى جانب المعاصر، حضور معيق ومكبل لانطلاقة أي جديد، بل والاحتراب معه ومنعه بكل الاشكال والوسائل المتاحة له، من سلطة ومال وتخلف اجتماعي وعوز اقتصادي...الخ.

يربط الجابري احد ملامح ثقافتنا العربية المعاصرة، بالوعاء الافصاحي وهو اللغة قائلا: العربي حيوان فصيح فبالفصاحة وليس بمجرد العقل تتحدد ماهيته، ويضيف في مكان آخر، اننا نفكر كما نتكلم، الشيء الذي يعني ان اللغة هي التي تحدد قدراتنا على الكلام، هي نفسها التي تحدد قدراتنا على التفكير، ويصف اللغة العربية بـ(اللاتاريخية) اذ انها تعلو على التاريخ، ولا تستجيب لمتطلبات التطور وان لا تاريخيتها مثلها مثل طبيعتها الحسية ليست فضيلة فيها ولا مكمنا لفلسفة موهومة خاصة بها وبأهلها يجب استخراجها وابراز اصالتها.

المفكر الجابري لم يقل العربي حيوان ناطق ليشمل بذلك جميع ابناء وامم شعوب العالم ويعزو الجابري ذاك ان العربي مولعٌ بحب اللغة الى درجة القداسة والخيلاء وفي

مقاربة غير موفقة للمفكر محمد اراكون حول الموضوع يقول: مشكلة التفاعل بين الفكر واللغة والتاريخ انها مشكلة نفسانية اجتماعية تاريخية لغوية تشمل الانسان كانسان، وطرحها القدماء في قولهم ان الانسان مدني بالطبع وان الانسان حيوان ناطق، ويمكن ان نضيف ان الانسان متدين او متمذهب بالطبع!! وهذا تعبير غير دقيق لاراكون، فالكثير من امم وشعوب العالم اليوم لا يحكمها التدّين ولا التمذهب الديني الطبيعيين بالولادة والفطرة. كما ان الانسان قبل ظهور الاديان السماوية ايضا لم تكن تحكمه الفطرة الطبيعية في التدين والتمذهب. فالتمذهب رافق التديّن المعاصر.

وكان الباحث والكاتب التونسي عبدالوهاب بو حديبة اشار ان في الثقافة – ثقافتنا العربية- بنيات ازلية علينا الكشف عنها بأي ثمن، ليس من اجل البحث عن اصالة موهومة فوق الزمن، وهنا يلتقي تماما برأي الجابري الذي سبق لنا تثبيته، بل من اجل تجاوزها ليتم الربط من خلال ذلك مع ضرورة الاخذ بالتحليل التاريخي مع المعالجة البنيوية ذاتها. وجوابا على سؤال للجابري كتب: انا لا اتناول الا الثقافة العربية العالمة والثقافة التي تتوزعها العلوم الاسلامية بما في ذلك الفلسفة طبعا.ان هذا يعني –والكلام للجابري- ان هناك قطاعات الادب والثقافة الشعبية بمختلف جوانبها بل هناك داخل الثقافة العالمة قطاعات لم اتناولها بعد، هناك الفكر التاريخي والفكر السياسي والاخلاقي مما يشكل قطاعا ابستمولوجيا ايديولوجيا واحداً.

الثقافة وغياب الالتزام

اما سمير صائغ فيتحدث عن الثقافة من منظور الالتزام بقضايا الجماهير قائلاً: التجديد ويقصد الحداثة في الآداب الذي كان في جوهر الحركة الثقافية الحديثة تراجع او تحول الى نوع من التأمل في احداث الواقع وتراكمها، وتناقضاتها وحركتها السريعة وبكلام اوضح لقد كانت الحداثة تتقدم لتأخذ دورها في التغيير فإذا بها يكشف لنا الواقع الراهن ابتعادها عن هذا الدور وتكاد تكون بلا دور. ويضيف: ان الطليعة في الثقافة العربية تكاد الآن ان تتخلى عند دورها او تخون طليعتها وما تستطيع الاجيال الجديدة ان تقوله ليس رفض منطلقات هذه الطليعة بل ربما محاسبتها على انجازاتها وتصرفاتها انطلاقا من مبادئ الطليعة نفسها. (مجلة الاداب، ع3، 1974).

يؤكد هذا المنحى د.يسن، من ان انعزال المثقف العربي عن الجماهير يحرمه من تحسس النبض الحقيقي لحركة الجماهير وعاداتها وقيمها وانماط سلوكها ومن الواضح ان المشكلة هنا لا ترد فقط الى رغبة المثقفين في الانعزال في ابراج عاجية، لكنها ترتبط مباشرة بقضية الديمقراطية في الوطن العربي. في تقديرنا ان ربط انعزال المثقف عن الجماهير لا علاقة له بالديمقراطية او الاستبداد، لأن الحداثة الثقافية ألزمت المثقف العربي على الازدواجية والاغتراب.

ويعمق جمال محمد احمد هذا الاتجاه في انفصام الثقافة قائلا: الثقافة الجماهيرية العربية نتيجة من نتائج التخطيط واثارها في حياتنا السياسة مخوفة، مرعبة، فهي الان وسيلة الحاكم الفاسد الى الجمهور، والجمهور ببغاء عقله في اذنيه يذيع ما يوحى اليه من رغائب الحاكم، واكثرها رغائب لا تستجيب لحاجة قدر استجابة الحاكم للبقاء حيث هو يحكم.

وفي محاولة ربط الثقافة بالحداثة الاجنبية العقيمة، وعن معادلة الشد والجذب ما بين جذب الثقافة نحو الفكر السلطوي المهيمن على ثقافة ايديولوجيا التسييس يوضح د.يسن عقم الاجتهاد في حل اشكالية التراث بالمعاصرة من قبل المثقفين: " ان اجتهاد المثقفين في موضوع التراث والمعاصرة لا يمكننا تقويمه بغير الالتفات الى العلاقة المعقدة بين المثقف العربي، والسلطة السياسية، بل ان السلطة الدينية بكل ثقلها الضاغط في المجتمع العربي كثيرا ما تلجئ المثقف العربي الى ان يلجأ الى مبدأ "التقية" الفكرية وتختفي بذلك الوجوه الحقيقية وراء اقنعة كثيفة. هنا تحليل عقم البحث في اشكالية المعاصرة والتراث لسببين الاول: المهيمن الديني التحريمي القمعي المتطرف والثاني: سلطة الحاكم الذي يستمريء انتقال الحكم بالوراثة في ظل هيمنة الجهل والتخلف.وليس فقط اشكالية السلطة مع المثقف كما يذهب د. يسن.

اما عن علاقة المنتج الثقافي على صعيد الفعالية يطرح سارتر مفهوم الالتزام من خلال اللغة، وسيلة تعبير مؤكدا في قوله "لا تكون الكتابة بدون جمهور وبدون اساطير- تأكيد ضمني من قبله على اهمية المخيال في المنتج الثقافي – والمؤلف – والكلام لسارتر- ذو موقف خاص، شأنه شأن جمع الناس ويتوجب علينا الكشف عن نموذج الجمهور او المجتمع الذي يتطلبه العمل الادبي.

واضاف سارتر ان مهمة المثقف الناقد هي ان يشارك في ساحة الرأي العام بكتاباته ومداخلاته في اطار هذه المهمة على المثقف ان يرصد ويحلل ويعطي وينقد نطاقا عريضا من الاوضاع على جبهة عريضة ممتدة. مفهوم الالتزام عاد مجددا باكثر اهمية وضرورة االيوم.الالتزام في الادب والثقافة تراجع اليوم في اعطائه مسوغات مثار جدل ونقاش.

ومن اجل مهمة الالتزام واهمية القارئ المتلقي طالب عالم اللغات "فيتنغشين" بأن كل ما يقال يجب ان يقال بوضوح، وإلا علينا ان نلوذ بالصمت، كمستودع نودع فيه ما نجهله. ما حدا ببراتراند رسل القول بامكان وضع لغة منضبطة خالصة، تخلو من اللبس والفائض والغموض، وهو ما ثبت تعذره مع خصائص جوهرية نابعة من طبيعة اللغة ذاتها. ما ارادهُ براتراند رسل لا يتعارض مع خصائص جوهرية في اللغة ذاتها حسب تعليل البعض. و ما طرحه رسل في منتهى اليسر والتناول. ولا يوجد خصائص جوهرية في اللغة تمنع من ايجاد لغة واضحة ميسرة.

خصوصية اللغة العربية

ونختم هذه المداخلة في خصوصية اللغة العربية اذ يتساءل مؤرخو اللغة العربية والعاملين في مجالها انه ما يلفت الانتباه ان كلمة اللغة العربية لا قرين لها في اللغات السامية الاخرى، فهل اندثرت لفظة "لغة" في تلك اللغات وبقيت في العربية فقط؟ ام ان العربية اجترحتها في مرحلة متأخرة من اختراعها الكتابة؟ مع هذا لاحظ اللغويون ان الكلمات تدل على معنى "تكلم" هي من اكثر المفردات التي تتغير وتبلى بسرعة لهذا لن نتوقع ان نجد كلمة مشتركة تعبر عن معنى الكلام في معظم المجموعات اللغوية إلا نادراً، ولكثرة تغير هذه الكلمات ربما بات من الصعب تحديد عمر بعضها. وتنهض هنا مشكلتنا مع كلمة اللغة العربية، على سبيل المثال، ما مدى عراقتها ؟ وهل لها صلة بقرينتها اليونانية "Lego" التي تفيد معنى تكلم، ويرى الاستاذ عبدالحق فاضل ان كلمة لغو العربية

بمعناها الكلامي، صارت في الاغريقية (Logos) بمعنى "الكلمة" ومن اللغة صاغ اللاتين كلمة "lingua" بمعنى اللغة واللسان – يلاحظ التطابق الكبير الاشتقاقي الذي اخذته الانكليزية عن اللاتينية في لفظة اللغة Language ، لكن لنستشر القواميس العربية اولاً، جاء في تاج العروس قال بن سيده: اللغة اللسن، وقال غيره اللغة هو الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل، ولغا لغواً، تكلم ومنه الحديث، من قال في الجمعة "صَهْ" فقد لغا أي تكلم ولغا لغواً خاب، وبه فسر ابن شميل حديث الجمعة.

اما اللغة بالاكدية فهي لشانو، وتعني لسان ايضا، وبالعبرية "لشون" وبالآرامية "ليشونو" وبالحبشية (لسن) وهي كلمات تفيد بالاصل معنى اللسان، ثم ان اللسان بالقبطية "لاس" وبالسنكريتية rasana، وباليونانية (gloss).

ثانيا: استطلاع في علاقة الثقافة العربية بالطائفية الدينية(ملف عراقي)

يرى الشاعر المفكر ادونيس في جذور العنف المستشري الى ان كل دين يزعم الهه هو افضل. كي يشن كل دين الحرب دفاعاعن الهه.غير ان الله قادر وحده كما اعتقد على الدفاع عن نفسه.لذافهو ليس بحاجة الى جنود ودبابات وحاجته اقل الى انتحاريين وفدائيين للدفاع عن نفسه.ويغدو الاله بالغ العنف حينما يقال باسم الاله لاتفعل هذا.. لاتقل هذا..لاتفكر في هذا. ذلكم هو جذور العنف السياسي والاجتماعي. وعندما ياخذ ادونيس لبنان كنموذج للطائفية المقيتة. حيث يرى ان الدستور يصنف الاشخاص حسب الانتماء الطائفي وهذا هو الأسوأ. فالكائن الانساني بما هو كائن في ذاته غير معترف به في لبنان. فاذا كنت مسيحيا فلن تنال قط وظيفة مخصصة لرجل مسلم. لأن مزايا المواطن يجري تحديدها في لبنان من خلال طائفته لا ثقافته. وماذا يعني انسان لايملك قيمة وجودية خارج طائفته او عشيرته[1].

ان الطائفة واقع معطى في حالة صيرورة. الا ان فشل عملية التحديث في المنطقة جعلت البعض يعتقد واهما انها من الثوابت وعلى جوانبها يراق الدم. في حين ان تطور الامم ينحو باتجاه المجتمع السياسي. مجتمع للمواطنين الذين يرتقون بوعيهم السياسي من درجة الطبيعة الى درجة الثقافة. حيث تصبح الاعراق واشجار النسب والمعتقدات الدينية والطائفية معبرة عن حالات مجتمع ما قبل السياسة[2].

اما عن ضرورة امتلاك المثقف حصانة ذاتية معرفية تجنبه الانزلاق في مزالق ثقافة الطائفية يستعرض الكاتب الروائي سعدون محسن ضمد قائلا: في كتاب موسى والتوحيد لفرويد يتجلى امامنا نمط رائع من المثقفين غير المنتمين. ففرويد يفكك في الكتاب ركائز موروثه الديني من اجل الوصول للحقائق التاريخية المتعلقة بهذا الدين. وخاصة تلك التي تتعلق بشخصية موسى. المفاجئة المهمة التي يتضمنها الكتاب لم تكن فقط الخروج بموسى من جنسيته اليهودية.بل الرابطة بين قصة انتشاله من النهر. وبين التكرار غير المفهوم لعملية انتشال ابطال الامم السالفة من الماء في الكثير من الاساطير. حتى ان فرويد يستشهد بنص يتحدث فيه الملك سرجون الاكدي عن نفسه قائلا: انا سرجون الملك القوي....كانت امي من عذارى الهيكل لم اعرف ابي. وعلى ضفاف الفرات في مدينة (آزو) حبلت امي بي وولدتني سرا. ووضعتني في سلة من الاسل وتركتني للتيار حيث لم اغرق. وحملني التيار الى غرّاف الماء (آكي) الذي انتشلني ورباني وكانني ابنه وصرت بستاني (آكي). وحين كنت بستانيا مال قلب عشتار اليَّ واصبحت ملكا وحكمت طوال خمسة واربعين عاما.

فرويد يعتبر ان تكرر هذه الاسطورة قبل التوراة بزمن طويل مبرر كاف للشك بصحة القصة التي ينقلها الكتاب المقدس عن حياة موسى. المهم في هذا الموضوع هو تجرد المثقف عن المسلمات القبلية التي ورثها عن مجتمعه ليستطيع محاكمة ونقد التراث

---

(1) كاظم الحسن – جريدة الصباح العراقية – الصفحات الثقافية 11 -12 -13 -14 – العدد 24 تشرين الثاني 2007 – ملف عن الثقافة والطائفية.

(2) المصدر السابق – ص 11.

بمستوى معقول من الموضوعية. هذا التجرد مهم في التعاطي الفكري وخاصة المتعلق بتراث المثقف وطائفته وايدلوجيته. فهنا المعالجة الفكرية تشبه لحد بعيد جلسة المحاكمة في حاجتها لقاض يتبرأ من كل التاثيرات الجانبية التي تؤثر على قراره النهائي[1].

كما يطرح الاكاديمي د. عماد مؤيد في نفس الملف ذات التوجه الذي مررنا عليه في ضرورة ان يكون المثقف انتقاديا وليس انقياديا. وان ينأى بنفسه وثقافته ان تكون الثقافة المجتمعية العامة هي التي تشكل وعيه الذاتي. ويضيف ان المثقف بحاجة دائمة لنوع من المحاكمة الذاتية التي تبدو عسيرة احيانا.

اما الشاعر الصحفي احمدعبدالسادة فهو يدين الثوابت القاطعة للطائفة لانها تمثل انزياحا لمفهوم الثقافة الحديثة قائلا: لاتتقبل ولا تتحمل الثقافة الجادة يقينيات ومحددات اية طائفة كون الخطاب الثقافي خطابا ديناميكيا مفتوحا على فضاء الجدل والتطور. بينما يتجلى الجذر الاساسي لاية طائفة في الخضوع الكلي لثوابت مستوطنة وغاطسة في مستنقعات الماضي. في خطوة انبثقت وتخثرت قبل اربعة عشر قرنا او قبل الفي عام. تؤمن الطائفة بشكل مطلق بأن حلالها حلال وحرامها حرام الى يوم القيامة. وهذا من شأنه ان يقزم ويقنن العقل ألانساني. ويضع سدا من السيوف المتوعدة المسعورة بينه وبين انتاج المفاهيم الضرورية لبناء أية ثقافة حقيقية تريد أن تحيا لاأن تدفن تحت سقف المسلمات الموروثة المحروسة بألتعصب والعمى العقائدي[2].

كما يتناول الروائي نصيف فلك تداخل الطائفة مع الثقافة بما يلي: هل توجد طائفة بلا دين.. وهل هناك اديان بلا طوائف ومذاهب وفرق واحزاب؟ ان اعظم العقول البشرية حتى ان كانت ملحدة وتتقزز من الدين لابد ان يتم ادراجها رغم انفها بدين او طائفة ومذهب. كثيرة هي الحروب وما زالت تنشب هنا وهناك ما دام عقل الانسان مرحاضا يتغوط فيه من يشاء مرة باسم الدين ومرة بالطائفية ومرة بالقومية. لكن اوربا والغرب ارتاحوا واستقروا عندما فصلوا الدين عن السياسة وحرموا كرسي الحكم على رجال الدين. ولولا هذه الخطوة الجريئة لبقوا مثلنا يعيشون في حلبة كوارث واحدة تنطح الاخرى حتى يومنا هذا. السلطة بيد رجال الدين مرض معد افتك من مرض الايدز وجنون البقر. جوهر المشكلة في تسلط الدين كما في ايران الشيعية والسعودية الوهابية. وتأتي بعدها حكومات دول المنطقة التي تدعي العلمانية وغيرها زورا وكذبا. فهي في حقيقتها دينية طائفية لكنها اخف واهدأ من ايران والسعودية وتمارس طائفيتها خلف الكواليس في السجون والجيش والجامعات. كم عدد الحروب الغابرة التي نشبت على خزعبلات دينية وطائفية ومذهبية ازهقت فيها ملايين الارواح وبقرت فيها بطون الحوامل وتطايرت فيها رؤوس الاطفال.؟ اما الاديب الفنان جواد محسن فيدلو بدلوه قائلا: تلعب اشكالية العلاقة بين السياسي والمثقف دورا محوريا في بلورة الشكل المعرفي لما يمكن ان تكون عليه ماهية السلطة فالسياسي الذي ينام على المتخيل التاريخي يريد من المثقف ان يوفر له غطاءا يدثر به اخطاءه. اما النمط الاخر من السياسي الذي لا يشكل التاريخ عبئا عليه فانه

(1) المصدر السابق ص -12.
(2)نفس المصدر السابق، ص19.

ينفتح على المثقف اذ يجد نفسه دائما بمستوى الاخر الذي يحاوره ولهذا نجد ديغول حين اسند الى اندريه مالرو وزارة الثقافة لم يشعر بالخوف او الغيرة ازاء قامة مالرو فالقامات الكبيرة لا تغطيها تلال التوجسات. سيكسب السياسي كثيرا عندما يكون صديقا للمثقف. ولكنه لن يربح شيئا عندما يصنع من المثقف عدوا له ينازله في حلبة الصراع والموت. اما الشاعر احمد عبد الحسين قائلا: قبل ايام اصدرت اسرائيل قانونا يجرم كل من لا يعترف بيهودية الدولة.القرار ليس عنصريا فحسب بل هو نكوص بالدولة واختزالها الى مكون بدائي هو الدين. البدائية ليست سابقة للدولة فقط بل عابرة لها ايضا تتخطاها سريعا وتتجاوز كل الارث الذي انتجته السياسة في مسيرتها الطويلة نحو التحضر.لاوطن للبدائي وطنه كهفه الذي هو في اعماقه. كهفه الذي تعتصم به عقائده خوفا من الشمس ومهما بدا الرجل البدائي حائزا على كل مظاهر الانسانية الحديثة فهو مشدود بحبل متين الى ذلك الاختلاف الوحشي الذي يقسم الناس الى قسمين: ناجين هم الحاكمون وضالين هم المحكومون. تديين الدولة او تطييفها سبب اخر لنكره اسرائيل واشباهها وسبب وجيه لنؤمن ان العلمانية جوهر كل دولة تريد ان تعقد حلفا غير منفصم مع الحضارة[1].

ثالثا: شيء عن التخلف الثقافي والمجتمعي والسياسي

المثقف والمجتمع

هل يستطيع المثقف العربي العيش وسط مجتمع متخلف؟! سؤال كنت قرأته للمفكر العربي د.عبدالله عبدالدايم قبل اكثر من ربع قرن مضى, وصادفتني مقولة للكاتب والروائي الانكليزي كولن ويلسون في ذات المنحى حينما تساءل: هل يصنع الحياة اولئك الذين يحبون صنع الكلمات,ام الذين يحبون صنع الحياة؟!واضاف ان المجتمع يموت برأسه وليس من قدميه.

ولكي لا تذهب بنا التفاصيل من وضع اجابة محددة سطحية لاتتعدى كلمة او كلمتين,نظلم بها الاستاذ المتسائل عبدالله الدايم كما نظلم عن قصد وقصور فهم انفسنا في تساؤله العميق وتاشيره آفة مجتمعية رجعية تاكل حاضر ومستقبل الوطن العربي. وبصرف النظر عن اي نوع من المثقف او المثقفين يقصدهم الاستاذ عبدالله عبد الدايم في تساؤله,وبغض النظر ايضا عن درجة ومستوى ايا من المجتمعات العربية المتخلفة يقصد. فالمجتمعات العربية وان كان يجمعها التخلف كافة,لكن يفرقها درجة ومستوى التخلف, وفي اي الجوانب من اساليب حياتها نجده. فتخلف المجتمع الصومالي هو قطعا غيره ولا يشبهه تخلف مجتمعات عربية اخرى, كالسعودية, مصر, العراق, ليبيا, اليمن, وهكذا.

وفي تحاشي الانزلاق في تفاصيل لا حصر لها من التباينات والاختلافات في دراسة التخلف في الوطن العربي,سناخذ نموذجين جاهزين من مثقفي التخلف, تاركين تقصي اسباب تخلف المجتمعات العربية لذوي الاختصاص والدراية في علم الاجتماع والسياسة.

---

(1) نفس المصدر السابق، ص 20.

نموذجا المثقف المؤدلج والنخبوي

في النموذج الاول من مثقفي التخلف, نجد انه لا تستلزم اصلا الحاجة له مجتمعيا, وتنتفي حاجة بقائه وسط مجتمع متخلف يحتاجه,لان ثقافة هذا المثقف عائمة في متاهة القطيعة وانعدام التواصل المجتمعي مفهوما, معرفة, ممارسة, سلوكا, تطبيقا, وتعاملا مع الاخرين والحياة, هي واقعة في دائرة الجدل العقيم والشد والجذب بين اصالة ثقافية قد يحملها او يدعيها, اوضحالة ثقافية انتفاعية متسلقة غير مسؤولة ولا ملتزمة,يتباهى بحملها في المناسبات الاستعراضية الاعلامية او الثقافية,ويباهي استغفال الناس بها.

فهو بدءا لايعرف وطنه في محنه ومآسيه وكوارثه,تاركا اياه اما مهاجرا عنه, او منعزلا عنه لايهمه امره في قضية او مصير.واذا ما هيئت له هالة من الاضواء المنافقة في التسويق,عندها يشهر استاذيته الثقافية, وتنحصر مسؤوليته المجتمعية,بمواعظه الانشائية,ونصائحه الكتابية او تحليلاته الاستراتيجية الفضائية اما من احدى عواصم العالم الذي استجدى موافقة الاقامة فيها. او من وراء جدران الجامعات والمؤسسات الثقافية والاعلامية رسمية كانت او غير رسمية التي تمنح الرواتب والامتيازات بما يليق به كاحد النخب الاكاديمية الاجتماعية وبذلك ياتي بالمرتبة الثانية بعد اعضاء حاشية السلطة وازلامها من المرتزقة السياسين. الذين يتاجرون بمصائر شعوبهم. مع اعتذاري من كل استاذ جامعي مثقف بحق.

التضليل السياسي-الفضائي

لفت انتباهي ان قطط الفضائيات السمان من مذيعين ومقدمي برامج وبفضل التمويل السخي والراحة السياحية داخل وخارج الوطن العربي اصبحت تنافس في مكياج الوجه وتسريحة الشعر واستبدال الملابس ما يفوق اناقة المرأة ومكياجها في مهنتها الاعلامية الاستعراضية لآخر موضة في عرض الازياء والجمال.واصبح هؤلاء من المذيعين المرتزقة ايضا ينافسون السياسي الذي وجد نفسه من متسكع او موظف صغير بلا ادنى مؤهلات يصبح مسؤولا كبيرا بالدولة يأخذ اعلى الرواتب والامتيازات يسافر بالطائرة وينزل في ارقى فنادق عواصم العالم ويرتاد افخم المطاعم والحفلات في الخارج. ان النتيجة المنطقية لسيادة التخلف الايدلوجي للسياسيين العراقيين بالذات, هو سيادة الوعي المتخلف اجتماعيا الذي ينتج بأستمرار ايدلوجيا سياسية متخلفة. وغيرهم من الشرفاء الابطال رابضين في سوح القتال يهبون دماءهم وارواحهم من اجل وطنهم ومستقبل اجيالهم.ومن المفروض وواجب كل سياسي عراقي ان يذهب ويتعايش لمدة اسبوع او شهر مع احدى القطعات المقاتلة بدلا من طعنهم في ظهورهم بالكلام الكاذب والتآمر عليهم.وكذا الحال مع عوائل الشهداء والنازحين. كذلك لم اسمع باستثناء المراسلين الاعلاميين الشجعان الذين يؤدون واجبهم الوطني في مرافقة المقاتلين في الخطوط الامامية. ان مثقفا او مجموعة مثقفين اوصحفيين تجرأت وامتلكت شجاعة زيارة موقع حربي في احد ميادين القتال. وفي اوقات الحروب القديمة العالمية الا ولى والثانية وفي الحروب المعاصرة ايضا وجدنا ونجد الكثير من المثقفين والادباء والكتاب العالميين الكبار يتركون مكاتبهم ويتطوعون كمقاتلين او مراسلين حربيين وسط الجنود من ابناء شعبهم. بل بعضهم يقبل ان يكون في موقع عامل خدمة واسعاف طبي كي يسجل له اسهامة في تاريخ وطنه.

اما النوع الثقافي الثاني المستنسخ عن الحالة الاولى التي مررنا بها ويستبطنها فهم التساؤل والمراد تحقيقه نجد ايضا لاجدوى من مثقف يحمل افكارا (اسفارا) او موهبة في جنس ادبي واحد او اكثر ويجد في هذا التمايز المجتمعي الثقافي حقيقيا ام زائفا تبعا لما يمتلكه طريقا سالكا نحو الشهرة والحصول على الامتيازات بالمتاح امامه من وسائل تسويق تلميع خادعة مخاتلة على حساب توظيف الموهبة الحقيقية في محاربة التخلف والفساد السياسي. فنجد في ازدواجيته انفصام الثقافة عن السلوك والممارسة والعلاقات مع غيره اجتماعيا بما يماشي التخلف والمخطوء في الحياة ويأنس التراجع المجتمعي العام لينأى بنفسه عن دوخة الرأس وتجنب المتاعب. وقد يجد او لايجد في موقفه المتخاذل هذا انه مشارك اساسي في صناعة وادامة التخلف الاجتماعي على انه من طبائع الامور التي لا يمتلك الانسان وسيلة تغييره. فيصبح مفهوم الثقافة عند كلا النموذجين الثقافيين يحتاج الى تساؤلات ادانة عديدة,واشارات استياء لان الثقافة تحولت عندهما من ثقافة الاسهام في بناء مصير ومستقبل بلد يعيش الكوارث والمآسي يوميا, الى ثقافة هامش استعراضي رخيص في لفت الانظار والظهور الاعلامي التسويقي في ابشع صورة امتهان للثقافة الجادة واستغفال المجموع الشعبي من شرائح الامية الثقافية او شرائح الامية الابجدية المتخلفة.

هنا نصل لتساؤل مفصلي اين يكمن الخطأ ؟ بالمثقف المزيف ام بالمجتمع المتخلف؟ ام بكليهما معا المثقف والمجتمع, وكيف تكون المعالجة ؟ وهل تلازمهما العضوي المتماسك في اعتياش احدهما على تخلف الاخر يكمل بعضه بعضا, وبالتالي يكون مطمح مجاوزة التخلف اكذوبة يتقبلها المثقف كممارسة انتهازية انتفاعية, كما يتقبلها المجتمع المتخلف كنوع من الحياة المقسومة المفروضة قهريا يتحتم ان يعيشها ويحتملها حتى لو كانت الوأد للحياة في ادنى مراتبها الانسانية. لذا يصبح لدينا معادلة متكافئة هي اينما تجد مجتمعا متخلفا, تجد ثقافة ضحلة تعتاش عليه وتساهم في صنعه وادامته. ولا نستغرب اذا ما وجدنا سياسيا متخلفا ثقافيا يسلك كل الطرق وراء جمع المال وكسب الامتيازات فقط على حساب المجتمع المتخلف المحروم. وقل مثل ذلك في كل مناحي الحياة التي يسودها التخلف والفساد, حين تجد الكثيرين من الذين يصرون على سيادة القناعات والسلوكيات الخاطئة وتعميمها, لان في تفشيها اجتماعيا انما تمثل عندهم الحبل السري في تغذية بقائهم وتمرير جميع ممارساتهم المحرمة في حق مجتمعاتهم.

مثقف الهجرة الى دول الخليج

اما عن المثقف الفنان اليوم فهو غير معني بتخلف مجتمعه الذي يركض وراء الكاسيت واخبار نجوم الفن. والفن اليوم اصبح عندنا في جميع صنوفه والوانه هو وسيلة كسب الشهرة وجمع المال والعيش في المهجر, ولم يعد الفن لا في خدمة الفن ولا من اجل الحياة, ففناني الغناء والرقص ومافيات الجنس المقنعة والمفضوحة, حتى بعض فناني التشكيل والرسم, والتمثيل والمسرح والرياضة الخ....فهم جميعا مشغولون في التسابق الى (ثقافة عرب خليجي) فهناك وبكل الوسائل المعلنة والخفية يجري اقامة بناء ثقافة متخلفة هابطة ابتذالية مليونية تستقطب غالبية طالبي الشهرة الفاشلين من الفنانين العرب ومن ضمنهم تشترى اسماء معروفة ثقافيا وفنيا جادة بالمال كي توظف في التنكر لقضايا مجتمعاتها المصيرية وتنكرها لضميرها في خلط الاوراق والحقائق لقاء حفنة دولارات.

ويقف على هرم مسؤولية هذا البناء الخليجي الثقافي التافه اشخاص جهلة يشترون كل شيء بالمال الحكومي الذي يغدق عليهم في المسابقات غير النزيهة وتوزيع الجوائز المزاجية, وعقد المؤتمرات واقامة البرامج والحفلات الغنائية التي تستقطب وتصرف شعوب الوطن العربي عن حقيقة تخلفها الثقافي الحضاري. وتعطيل دور الفنون والرياضة وغيرها ان تكون عوامل هادفة لتحفيز يقضة الشعوب العربية.ولا علاقة لهذه الانواع من الانشطة والثقافة والفنون والرياضة التجارية بمصائب وكوارث الوطن العربي ان لم يكن توظيفها اسهاما مقصودا في ادامة وتعميق هذه الكوارث فقط خارج مجتمعاتهم الخليجية,ويوجد وللاسف من المثقفين والفنانين والرياضيين العرب من يبيع وطنه وامته في مقابل عقد عمل في احدى دول الخليج لمدة عام وما اكثرهم في مقدمتهم العراقيين واللبنانيين والمصريين من المثقفين والفنانين والعاملين في الوسط الرياضي.